لقاء في عالم آخر

شيماء رضوان

وقفت أمام المرآة تتحسس وجهها بأطراف أناملها
تَفَلَّتَ عمرها مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِا
وحلم الأمومة يعبر قلبها
تاركًا خلفه أثر تعثرها في الحياة مره بعد مره
ذهبت إلى المطبخ، ووقفت أمام البراد
الذي يتقاذف البخار بشكل متصل
يعلن عن وصوله للغليان
مظهرها ثابت لا يُنبئ عن صراعها مع الزمن

وقفت خلف زجاج النافذة تتابع زخات المطر
الذي ينهمر بشدة
مصحوبًا بصوت الرعد وضوء البرق الذي يشق وجه
السماء بين الفينة والأخرى
مرت الدقائق تتهادى .. مرت كأنها دهرًا
ثم عادت آسيا إلى مقعدها
ترتشف قهوتها ببطء وهي ترسم بالكلمات في دفترها الخاص،
فكتبت " قصة وجع "

عصفور صغير أجتاحه المطر ينتفض بين أضلعي
يرتعد من شتائك الطويل
فلا أنت أتيت .. ولا أنت تركت.

لماذا؟

جلست فريدة تتشاغل عن غيابه بالورقة والقلم كعادتها تقرأ تكتب تتذكر المواقف والكلمات

حتى سمعت صوت المفتاح يدور في قفل الباب، وصوت صريره الخافت يعلن عن وصول الغائب.

غدًا عيد زواجهم التاسع عشر وهي مازالت متيمة بحبه منذ أن عرفته صديقًا في الطفولة ثم زميلاً للدراسة، ثم حبيبًا، وأخيرا زوج، ورفيق درب.

حياتها تدور في فلك أحمد إذا غاب تنتظره

إذا حضر تقضي الوقت بجانبه تترك كل الأشياء خلفها من أجله.

هذا العام أتمت فريدة عامها التاسع والثلاثين، لكنها مازالت جميلة، مرت الأعوام بجانبه سعادة ورضا حتى أصعب الأيام مرت عزيزة ... تقاسمت معه البدايات والأوقات الصعبة؛ حتى تحققت الأحلام وأصبحت العيادة الصغيرة مشفى خاص، وشقة الحي الشعبي صارت بيتًا كبيرًا له حديقة رائعة، وأدهم و يسرا قرة العين صاروا في عمر الزهور، أدهم في عامه السابع عشر،

ويسرا في الخامسة عشرة من عمرها.

كانت فريدة تبتسم وهي غارقة في بحر خضم من الذكريات العذبة؛ لم تشعر بوصول أحمد حتى ضمها إليه عندما وجدها شاردة ،وابتسامتها تضئ وجهها الملائكي، نبضات قلبها تتوالى بصوت مسموع؛ تعلن عن حبًا عميقًا، تبدو عليها السعادة، لكنها تائهة في الأحلام ،عيناها الزرقاء تحمل أمواج العشق العاتية كما تعلقت على أهداب عينيها قطرات من الندى كحبات اللؤلؤ تأبى السقوط.

أخذت تلتهم تفاصيل وجهه بنظراتها الحانية، وهي تقول:

- اشتقت إليكَ يا حبيبي، لماذا تأخرت هكذا؟

- كان لدي الكثير من العمل اليوم.

- دقائق ويصبح العشاء جاهزًا.

قالتها واندفعت نحو المطبخ لكن أحمد أمسك يدها وجذبها إليه ثم وضع وجهها بين كفيه في حنان ملفت كان ينظر إليها بشوق، يتأملها بصمت حزين وترتسم على ملامح وجهه مشاعر كثيرة مبهمة حائرة، قال بهدوء:

- ليس لدي رغبة في الطعام، كل ما أريده في هذه اللحظة أن تكوني بجانبي؛ أنا مشتاق إليكِ، وفي الصباح الباكر لدى عمل هام خارج البلاد لبضعة أشهر؛ لحضور مؤتمر طبي.

انطفأت ابتسامة فريدة وبدت الخيبة على وجهها، وهي تقول برجاء:

- غدًا عيد زواجنا، هل يمكنك تأجيل سفرك لبضع ساعات فقط؟

لقد رتبت لحفل صغير لنا مع الأولاد.

خفض أحمد عينيه؛ ليتوارى عن نظرات الرجاء في عينيها، وهو يقول:

- لا أستطيع، الأمر ليس بيدي كما تعلمين.

أومأت فريدة برأسها وعادت ابتسامتها، وهي تقول:

- بالطبع أعلم.

ضمها أحمد إلى صدره، ثم اصطحبها لغرفة النوم، وقفت فريدة ترتب ملابسه ووضعتها باهتمام داخل الحقيبة، ثم جلست على طرف الفراش بجانبه، ووضعت رأسها على كتفه، فأعتدل في جلسته، وأمسك يدها ثم وضعها بين راحتيه، وضغط عليها بقوة كأنه يخشي أن تفلت يدها من بين كفيه، ثم قال والتردد بادٍ في عينيه: لقد قمت ببيع المشفى وفيلا الساحل الشمالي.

اعتدلت فريدة في جلستها ،وهي تنظر إليه بدهشة كبيرة من أثر المفاجأة، وهي تتمتم:

- متى؟! لماذا ليس لدي علم ؟

- ظروف خاصة بالعمل أنا بحاجة إلى كثير من المال؛ لدي ديون واجبة السداد.

هزت رأسها، كأنها تنفي ما سمعت، قالت:

- لم أفهم، ما فائدة السفر في هذا الوضع الذي أجبرك على بيع المشفى والفيلا، اشرح لي لو سمحت.

شد أحمد على يدها مره أخرى؛ ليطمئنها، ورسم ابتسامة حانية وهو يبحث عن الكلمات المناسبة لشرح الموقف، ثم قال:

-عندي مشاكل مالية بسبب الإدارة؛ كما تعلمي لقد تفرغت للمرضى وتركت الإدارة لدكتور يوسف إلا إنه لم ينجح مع الأسف؛ والنتيجة أزمة هزت سمعة المشفى بشدة؛ وبات الأمر بحاجة إلى حل سريع.

ثم جاء المؤتمر بمثابة بارقة أمل وبداية جديدة، ربما تمتد رحلتي إلى شهرين ثلاثة، لكن لا تقلقي لن يتغير شيء؛ هذه الفيلا قد نقلت ملكيتها إليكِ، وحسابك في البنك فيه ما يكفي لحين الانتهاء من عملي.

هبت فريدة واقفة وهي تشد يدها من بين يديه كانت تبدو على حافة الانهيار وهي تقول بصوت واهن مضطرب: ما زلت لا أفهم ما هو الداعي لأن تتركنا خلفك هكذا!

لماذا السفر إذا تمكنت من البيع والسداد؟

لماذا لم تصارحني منذ البداية؟

هل تحتاج إلى مزيد من المال؟

لماذا لَم تخبرني من البداية بحاجتك إلى المال؟

ارتسمت ابتسامة صغيرة، تحمل بعضًا من التهكم على شفتيه من تساؤلاتها المتتابعة، وهو يقول:

-ماذا كان بوسعك أن تفعلي أكثر مما فعلت أنا؟

لم تلاحظ فريدة نظراته الساخرة وكلماته المتعالية؛ كانت غارقة في كلماته تختلق الأعذار، تحاول التسلل إلى جراحه ؛لتكون له الركن الأمن كما اعتادت، أمواج الحيرة داخلها ، ثائرة تفيض على البساط الأخضر الذي في قلبها له، شعور مبهم بالخوف ينذر بوقوع شيء لا تعرف ماهيته

رغم ذلك الطوفان من المشاعر المتناقضة كانت تبتسم ، وهي تخطو نحو خزانة ملابسها فتحتها وأخذت منها صندوق صغير، ثم عادت مرة أخرى لتقف بين يديه وضعت الصندوق أمامه كان بداخله كل ما تملك من مشغولات ذهبية.

وقالت له بحب صادق:

-خذ ما يكفيك، خذها كلها أنا لست بحاجه إليها.

أمسك أحمد يدها وقبل راحتها، ثم جذبها نحوه يحثها على الجلوس أمامه، وهو يقول:
- لم يعد الأمر يستدعي، بضعة أشهر فقط ويعود الوضع كما كان، ثقي بي.
أطال النظر إليها، ثم قال:
-الآن دع القلق جانبًا وتعالِ...
انقضت الليلة وهي بين يديه، حتى أنبلج الصباح، وحان وقت الوداع.
وضع قبلة صغيرة على جبين يسرا وهو يضمها إليه بشدة يتأملها بنهم كأنه يخشي أن ينسى ملامحها، ثم عانق أدهم وهو يهمس في أذنيه ببضع كلمات تبدو كأنها وصية، وِأخيرًا ضم فريدة إليه ولثم ثغرها، ووجنتيها، ويديها، ثم ركب سيارة أجرة بعد أن رفض أن يصحبه أحدٌ منهم إلى المطار.
داخل السيارة كان يتمتم بكلمات لم تجد لها طريقا عبر شفتيه، كان يرثي سعادته المفقودة، يتمتم بكلمات تريح ضميره أنا أحب فريدة؛ لكن الملل أضاع الشغف، اهتمامها الزائد أفقدني اللهفة، حبها أصبح باردًا، تفرغها الدائم ووجودها المستمر حولي؛ أفقدني جزءاً كبيرًا من رغبتي أن أكون معها ومع أولادي، حاولت لفت نظرها أكثر من مرة لكن دون جدوى.
وصلت السيارة إلى منزل الدكتورة ريما؛ فضاع ما بقى لفريدة منه حتى ولو كان بضع كلمات تحمل شعورًا خفيًا بالذنب نحوها.
دقائق قليلة وظهرت ريما ذات الخمسة والعشرون ربيعًا، فتاة متوسطة الطول، بيضاء، لها شعر أشقر، وعيون خضراء، تلميذته الصغيرة وحبه الذي أرغمه على طي صفحة فريدة.
كانت ترتدي قطعًا صغيرة من الملابس تظهر أكثر مما تخفي، وتحمل حقيبة ملابسها، والشوق
يضفي البهجة على ملامحها الفاتنة، نزل أحمد من السيارة لاستقبالها، فحمل عنها حقيبتها ووضعها داخل السيارة، في حين وضعت ريما قبلة صغيرة على خده الأيمن، ثم ركبا السيارة وانطلقا صوب المطار، على الطريق فتح أحمد غطاء هاتفه الشخصي و نزع شريحة الاتصال وكسرها إلى نصفين وألقى بالهاتف نفسه من نافذة السيارة، دقائق قليلة ووصلوا إلى المطار، أعلنت المكبرات بدء استقبال ركاب الطائرة المتجهة نحو مطار مونتريال الدولي بكندا.
نحو حياة جديدة.
أما فريدة الزوجة، الأم، الصديقة، جلست تنتظر أخباره كما وعدها دون جديد حتى ضاق بها الانتظار، وأستبد بها القلق؛ وبدأت تبحث عن زوجها دون جدوى، كان قد تعمد إخفاء أثره؛ و تركها خلفه تبحث عنه ولا تجده، استبدت بها الظنون حتى أرقت مضجعها، وأرهقت عقلها وقلبها، كانت تعاتب نفسها؛ واتهمتها بالتقصير في حقه، كيف له أن يحمل كل هذه الهموم دون أن تعلم عنها شيء؟ كيف لها أن تكون بجانبه ولا تدري شيئًا عما يعاني؟ ظنت أنه قد أصابه مكروه؛ فأصبحت تمضي أيامها بجلد، تساعد أبنائها على التعود على الحياة دون أب.
أب تركها خلفه في انتظار وصول طفلهم الثالث الذي أراد القدر أن يكون الشاهد الوحيد على ليلة الغدر والجحود دون أن تعي هي ذلك.

أب ميت وهو ما زال على قيد الحياة.
أما أحمد توالت الأيام بجانب ريما سريعا كان يقتات السعادة من بين شفتيها، يتنقل بصحبتها ما بين العواصم الأوربية عازمين عدم العودة مرة أخرى دون ذرة خجل، غارقين في بحر من الملذات.

وفريدة تكتب سطورا عن الأمل والوفاء
بضع كلمات منمقة تصنع فيض من الحب
تحمل القلب في فلك يبحر عبر السراب
وكأن
الكلمات وحدها تكفي...
بحر خضم من المشاعر الصادقة
يصنع جرحًا غائرًا
لقلب أرتوى الوهم
قطرة قطرة
لم يعد يرى الصدق
قلب في العيون وإن اشتاق
في منتصف الطريق تتساقط الأقنعة...

مثلث برمودا

جلست وعد أمام شاشة الحاسوب الخاص بها، فتحت حسابها الشخصي على موقع الفيسبوك

ظلت تقلب الصفحات والأخبار بملل، وهي ترتشف رشفات صغيرة من قهوتها ببطء كما هي عادتها، الكثير منا يهدر وقته وجهده في كثير من الأشياء دون عائد ليس حبًا فيها إنما مجرد اعتياد حتى تصير العادة أكثر رتابة فيبهت الشغف ويبقى الاعتياد وحده ما يدفعنا إلى ممارسة تلك العادات.

دقت الساعة الثانية عشر بعد منتصف الليل؛ فتثاءبت وعد بكسل وهي تقلب ذكرياتها لكنها توقفت عند ذكرى صغيرة تلون لها قلبها بلون الغيم الرمادي حتى بات يشبه ليلة شتوية أبت أن تمطر واكتفت بالصمت العاجز، فاضت عيناها بالدمع حتى أختنق صدرها بالألم و ضاق.

وجدت تلك الكلمات على حسابها تحمل تاريخًا قديمًا لكنها مازالت حيه رغم مرور الوقت إلا أنها باتت تؤلم بعد أن كانت سعادة، قرأت الكلمات واجمة تشعر بالفراغ يسكن بين ضلوعها، قرأت بصوت مسموع مخنوق بالعبرات...

(كلما حاولت أن أبرر كلماتي أو أفعالي؛ أشار لي بالتفهم ثم غمرني بشعوري نحوه بالامتنان

مرة من بعد مرة ... كان صديقًا للروح)

دفعها الفضول والحنين لفتح أبواب الماضي؛ لتحلق أعلى مثلث السقوط الشهير "مثلث برمودا"

التي كانت هي إحدى نقطتي قاعدته.

ابتسمت وهي تتخيل رسم صورتها في قلب عينيه، وإن كانت غائمة.

ضاعت وعد بين قلبها النادم، وعقلها الشامت في قلبها الذي خذلها.

تسللت إلى حساب حسام الشخصي؛ لتجد تهنئة صغيرة على صفحته بعيد ميلاد نور، وقد ذيلها بأولى حروف اسميهما كما راهنت نفسها قبل قليل؛ ليصدق حدسها

ليست المرة الأولى، فقد اعتادا على ذلك منذ سنوات، حسام يكتب لنور على صفحته، ونور تبادله التهنئة بأخرى على صفحتها..

"شفرة لا يفهمها إلا من أقترب منهما"

ووعد تراقب بصمت كانت ممتلئة، مكتفية، بتلك الروح التي صنعتها في خيالها حد الارتواء، كانت وطن يحتويها دون شرط دون ملل لا تبدي ضجر، بضع مواقف صنعت سعادة، وعادة، وكانت حياة.

وكانت...

عادت وعد إلى الماضي القريب، كان بعينيها وقلبها حسام الصديق الصدوق، كانت له دواء

أوقات الفراغ، وأوجاع الذكريات دون أن تدري ، كانت مجرد وسيلة لا أكثر.

لا شيء يبرهن على الصدق، حتى يأتي الاختيار، وهي لم تكن له اختيار في أي وقت مر.

جاء وقت الفراق على عجل؛ فتحملت وعد وحدها مسؤولية سنوات أنقضت هباء بعد كلمات الصداقة، وحديث الأرواح، وزهو المشاعر الزائفة التي أشعلها بداخلها، وقلبها الذي تعلق دون شرط أو قيد، لم يكن أمامها إلا الانسحاب.

كانت وعد كلما شعرت بالتعلق، تمسكت أكثر بالصداقة أملًا في الصديق الذي ينصح ويعلّم ويساند، لكنها أضغاث أحلام واهية زائفة تلك الصداقة التي أنهكت القلب، وانتهكت الروح فأفقدتهم براءتهم...

كان حسام يختال بقسوته على ضعفها، كان مظلِم حد الظُّلم.

قالت بألم تحدث قلبها:

- كنت أنتَ تلك النبضة العالية التي ينتفض لها قلبي...

بدأت وعد ترسم الأحداث وتربطها كما اعتادت، بعد أن وجدت تهنئة على صفحة حسام، لم تجد لها رد على صفحة نور.. كانت تهنئة للمرة الأخيرة؛ فقد تغير كل شيء.

الأيام لا تبقي شيئا على حاله، تاهت وعد وذهبت بخيالها إليه، رأت طيفه يجلس أمام صفحة نور يقلب صورها، وهي ترتدي فستانها الأبيض، والابتسامة تضئ وجهها، تاج الفرحة يزين حجابها، رأته ضائعًا بين الصور، و شريط الذكريات يطوف عبر مخيلته، يتذكر أول لقاء بينهم، أول حلم لهم ببيت دافئ يجمع بينهم في شقته الصغيرة في إحدى الأحياء الشعبية في منزل والده، وورقة صغيرة بين يديه يرسم عليها بيده ملامح أحلامهم وهي تلونها بذوقها وهو يوافق بإيماءة صغيرة من رأسه والفرح بادي ٍ على ملامح وجهه.

تقول نور: هذه الغرفة لنا والأخرى للصغار، تختار الألوان المبهجة للجدران والمفروشات، وهو يوافق عليها، ثم ذيل الورقة بأول حروف من أسمائهم، ووعدها أن تكون له حياة.

وصلت وعد إلى أخر الوعود التي قطعها حسام ونور فيما بينهم، يوم قرر حسام السفر للعمل بالخارج؛ لأن شقته في منزل والده لم تكن كافية لأحلام والديها، وقاعة العرس الصغيرة لن تكفي أقاربهم، كان كلاً منهما ينظر إلى طريق مختلف، ويمني نفسه بنفس النهاية.

رسمت وعد لقائهم الأخير في خيالها؛ لان كل ما يخص نور كان سرًا، وعد لم تسعى لتنتهك الأسرار، لكنها تجمع بعض القصاصات والكلمات التي يضعها حسام بين يديها دون أن تطلب المزيد قانعة بما يعطي، كانت تتلمس كلماته الحزينة العاتبة وحروفه المبعثرة ثم تعيد ترتيبها، تترجم مشاعره المثقلة وهي تتلمس أنفاسه؛ لكي تطمئن عليه، تتلمسها في الخفاء دون أن يشعر، تتحسس قلبه وتدعو له وهي تضع يدها على ذلك .الفراغ الذي احتل قلبها.

أخذت الذكرى وعد ورسمت لقاء حسام الأخير مع نور، ذهبت بقلبها إلى ذلك اليوم الذي كانت تجلس فيه نور إلى جانبه، لا يستطيع كلاً منهما أن يواجه الأخر، كلاهما ينظر نحو الأرض، وتختنق الكلمات بالصمت والدموع تتساقط كاللؤلؤ الذي أنفرط عقدة و تناثر هنا وهناك

بدأ حسام الكلام وهو يبحث عن الكلمات بين ركام الألم الذي امتلأ به صدره، ثم قال:

- سوف أفي بوعدي، لن يهنأ لي بال حتى أعود بكل ما تتمني، لن أتأخر، عام أو عامان فقط، وسوف يمر الوقت سريعًا .. انتظريني.
قالت نور والدموع تتساقط تحرق وجنتيها:
- سوف أنتظرك ،لا تقلق لن أحيا بدونك.
التفت إليه بهدوء وأطال النظر إليها، وهو يقول:
- لم أكن أعلم أن الأمل يختنق عندما يصطدم بالواقع.
لم أكن أدري أن الماديات أقوى من الحب والصدق.
لم أكن أتصور أن للأحلام حدود...
قالت نور بصوت يلتمس الأعذار الواهية:
ربما كان ينقص الحلم أن ينزل إلى أرض الواقع.
ابتسم حسام بحزن وهو يهرب بعينيه عنها، وقال:
-أبدًا، لم أكن ضائعًا على الطريق وأنا أتلمس الواقع لأنسج أحلامي لحياتي معك.
ما الذي يعيب شقتي في منزل والدي؟!
ماذا يعيب حينا الشعبي؟
ألَمّ نتعاهد على الصبر والقناعة وأن نبني عالمًا لنا وحدنا؟
ألَمّ نحلم بأن نتدثر بحبنا من قسوة الأيام؟
لماذا تدنس أحلامهم حبنا الذي يكبر يومًا بعد يوم؟
لماذا نتركهم يغتالون العهود التي بيننا بالخضوع والاستسلام لهم؟
متى ندافع عن هوانا وهويتنا ... إذا لم يكن الآن؟
قالت بنبرة انكسار تدافع عن نفسها:
-أنتَ تعلم أني لن أفلت يدك أبدًا، لكن محاولاتي وحدها لا تكفي، الحب وحده لا يكفي في هذا الزمان .
ابتسم والألم يعتصر ملامحه حتى بدا وكأن ملامح وجهه أصبحت أكثر حدة وصارمة ، انتزع الكلمات من بين أنياب العجز وقال:
- لن أخذلك أبدًا، لن أفلت يدك حتى تفلتي يدي .. انتظريني.
قالت:
-لن أفلتها.
أفاق من شروده على صورة لها، تقف بجانب ذلك الغريب الذي أصبح قريب، ويرفع كلاهما كأس الشربات الأحمر القاني في صحة الحياة الجديدة.
كانت الصور مبهجة، لا تحمل أي ملامح للماضي، القاعة كبيرة، وكعكة العروس سبعة أدوار كاملة، ونور تزين يدها بخاتم من الألماس
وحسام يجلس وحيدًا في حجرته الباردة في بلد المنفى بعيدًا عن الوطن، عن الأهل، يتساءل عن تلك الورقة التي نقش عليها أحلامه وتركها لها ،هل شاركته المصير نفسه؟
ثمة أشخاص وجدوا الغربة بين حدود العقل والقلب...
فالاغتراب داخل القلوب أشد إيلامًا.
افاقت وعد على صوت أشعار يأتي من الماضي القريب؛ فانتبهت لتجد نفسها تقرأ ما بين السطور كعادتها، كان تعليق لحسام على صفحتها يسألها عن معني الروح

وظل سؤال بلا جواب طويلاً.
فكتبت بحروف قليله تختصر كل ما علق في عقلها من مواقف وأحداث ردا على كلماته

"يومًا ما ستعلم أن روحي وحدها كانت الأقرب "

الاختيار

وقفت سارة أمام المرآة تضع لمسات زينتها الأخيرة وهي تعيد النظر إلى ملابسها وشعرها، وضعت قطرات من عطرها الرقيق الذي أضفى بهجة على روحها المنكسرة، أخذت نفسًا عميقًا ثم أخرجته بهدوء وهي تحاول أن تتخلص من شعورها بالتوتر الذي سكن كل ذرة في جسدها المرهق، لم تكن قد نامت ليلتها جيدًا ظلت تتقلب في فراشها وهي تشعر بالنيران المتأججة داخلها تتزايد.

كانت تستعد للقاء قد تأخر عشرون عام كاملة حتى ظنت كل الظن ألا تلاقي بعد تلك الأعوام المنقضية، حتى وضع القدر خطة اللقاء بوصول رسالة على مقر عملها قامت باستلامها يدًا بيد من صديق قديم لوالدها كان قد حضر خصيصًا لتسليمها إياها وتأكيد الاستلام .

كم من رسائل لم تصل ولن تصل ولا أحد يعلم مصيرها حملت الكثير من الأسرار والأمل والمشاعر في طياتها، ربما حملت كذلك الكثير من الصدق الذي يقضي البعض عمراً كاملًا يبحث عنه في العيون والقلوب، ثم يعود محملاً بالخذلان.

تاهت سارة بين حنايا ذاكراتها المرهقة، تتذكر أيام طفولتها وصباها، خيل إليها أن رفقاء رحلة حياتها يقفون أمامها مبتسمين بسخرية، أصدقائها الدائمين كانوا التخلي والقسوة، وعدم الأمان.

كان والدها يحيي عبد الرحمن يعمل بإحدى دول الخليج منذ سنوات، يعمل مهندسا في إحدى شركات البترول سافر منذ أن كانت في الخامسة من عمرها؛ حتى باتت لا تتذكره ... كل ما تذكره عنه أنه تركها خلفه هي وأخوها الذي يكبرها بأربعة أعوام دون اكتراث وبعض من الحكايات التي سمعتها من والدتها عنه، كانت أمها تستفيض في الحكايات عنه كلما سمحت الظروف لذلك.

دائما تحكي عنه كل ما يسئ إليه، تبسط فراش الماضي وتنهل من ذكرياتها المؤلمة معه، تنفعل ثم تبكي وتتلعثم من فرط الانفعال؛ فتنكسر سارة أمام حزنها وتضيع بين قلبها وعقلها.

تحكي أمها أنه كان يتركهم ويغيب عن المنزل كثيرًا، وعندمًا يعود يمتلئ المنزل بالصراخ لأبسط الأسباب، تقول عنه إنه أب غير مسئول فاشل؛ لا يستطيع تحمل أعباء الحياة، ليس له عمل معروف، يتنقل من عمل لأخر دون أسباب واضحة، لا يتكلم أبداً بلسانه، يده أكثر قدرة على الإقناع، دائم التطاول عليها بيده ولسانه؛ لذا كانت تكره كل شيء يجمعهم معًا.

له الكثير من العلاقات الفاشلة، له زوجة سابقة، وزوجة حالية هي أمها، كانت سارة تتغافل وتحاول جاهدة أن تتعايش مع حياتها، لكن أمها كانت تتميز بالشدة والقسوة لم تضمها يومًا ... لم تشعر معها بالحنان أو التواصل، كانت تتجرع الخيبة وهي ترى صديقاتها تتمتعن بصداقة أمهاتهن .. وتتألم بصمت.

كانت سارة تتخبط حائرة، وهي تبحث عن إجابات للأسئلة التي تدور داخل؛ فأمها تتشابه مع أبيها في كل شيء، لماذا تلوم عليه أذًا؟

عندما علمت بقدومه إلى القاهرة طلب منها أن يلتقوا كتمت الأمر عن أمها وأخيها ووافقت على اللقاء، كانت تريد أن تقابل بطل القصص التي تسمعها؛ وتطابق صورته مع الصورة التي رسمتها له في خيالها المراهق.

سارة فتاة جميلة ينقصها الكثير، فقدت أركان الحياة كاملة، غاب عنها أمان الأب، وحنان الأم، ومساندة الأخ؛ كان أخوها قاسيًا يستمد قوته من عقدة أمها التي لا تعلم ما هي.

لماذا يحظى أخوها بالاهتمام والقوة على حساب ضعفها ؟!

انتبهت على صوت هاتفها الخاص، انه هو والدها يستعجل وصولها.

نظرت في المرآة للمرة العاشرة على أقل تقدير، ثم أخذت حقيبتها وبدأت طريقها للمعرفة، ركبت سيارتها وانطلقت ومازال التوتر والخوف هو الشعور السائد.

وصلت إلى مكان اللقاء، كان مقهى اختارته بنفسها دخلت إلى المكان بتردد كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءًا لليلة صيفية مقمرة رائعة الجمال دخلت بكامل أناقتها ترسم اللامبالاة على وجهها لكن الخوف يسري في عروقها مجرى الدم ، قلبها يخفق بشدة كطائر حبيس يبحث عن الحرية داخل محبسه.

مجرد أن دلفت إلى المكان دارت عيناها تبحث عن مضيفها، حتى وجدته كان رجلاً في منتصف الخمسينات وسيم جذاب رغم الشعر الأبيض الذي أحتل رأسه يمتلك بعض من روحها فالعين التي تراهما معًا لا تخطئ الظن أبدًا في أنهم أب وابنته اقترب منها فاتحًا ذراعيه لها وهو يقول:

-أخيراً يا سارة اشتقت إليكِ يا حبيبتي كثيرًا.

ضمها إليه وأخذ يربت على ظهرها في حنان، استسلمت له وأراحت رأسها على كتفه لحظات توقف عندها الزمن، حارت الدموع بعينيها وقلبها يخفق بشدة يود القفز من بين ضلوعها شغفاً بالدفيء الذي انتاب روحها بمجرد أن سكنت بين يديه الدافئة.

أبعدها عنه برفق، وقبل جبينها ثم أحتضن كفها بين يده بقوة؛ كأنه يأبي أن تفلت منه مرة أخرى، وهو يقودها إلى الطاولة لتجد زوجة أبيها جالسة، تأملتها بدقة كانت سيدة رقيقة أربعينية العمر، تبادلوا التحية وقامت زوجة أبيها بضمها إليها بحنان وود أثاروا دهشتها، تبادلت التحية مع أخوتها لأبيها، كانت أول مرة تراهم حتى أنها أول مرة تعلم بوجودهما، طفلين عمرهم ما بين السادسة والتاسعة ولد وفتاة جلست سارة بعد التحية.

دقائق ووصل النادل دون طلباتهم في ورقة، ثم ذهب.. جلست سارة بجانب والدها الذي أخذ كفها الصغير بين يديه، وهو مازال ينظر إليها بشوق جارف أثار الدهشة في نفسها وهو يقول:

- أصبحتِ عروس جميلة، شوقي إليك أكثر مما تظنين سنوات أنقضت وأنا أحلم أن أضمك إلى صدري.

قالت سارة بشيء من العتاب:

-هكذا هي الأحلام دائما ما تكون صعبة المنال، لماذا لم تأتِ من قبل ويصبح الحلم حقيقة؟ هل كان الأمر صعبًا لهذه الدرجة؟ الشيء الطبيعي أننا أسرة واحدة لابد أن نكون معا دائمًا، لكن حضرتك اخترت الطريق الأسهل، اخترت التخلي عنا كنت أنا وياسر في عمر أخوتي عندما تركتنا، والآن لدينا أخوة لا نعلم عنهم شيء.

قال والدها يدافع عن نفسه:

-حاولت كثيرًا جداً ... كتبت إليكِ رسائل وأرسلتها وانتظرت الرد دون جدوى، كل يوم يمر كنت أكتب إليكِ حتى تأكدت أن والدتك منعت رسائلي من الوصول إليكم أنت وياسر.

الذي أعلم يقينًا بانتمائه إلى والدتك.

فقررت أن أجد طريق أخر حتى وصلت لحسابك على (الفيسبوك) أرسلت لكِ رسالة منذ عدة أشهر لم تكن بحال أفضل مما سبقها؛ فقررت الحضور لكن القلق تسرب إلى نفسي والسؤال ظل يؤرق منامي، هل يمكن أن تكوني أنتِ من يمتنع عن قراءة رسائلي؟

وكان الحل هو رسالتي التي أرسلتها مع صديقي إلى مقر عملك مع التشديد عليه بأن يسلمها لكِ يدًا بيد، لا أستطيع أن اصف لكِ مشاعر الفرح التي غمرتني عندمًا أكد لي صديقي استلامك للرسالة؛ انفتحت أمامي أبواب الأمل من جديد حتى أراد الله أن يجمع بيننا هنا يا فرحة العمر.

قالت سارة وخفقات قلبها تتسارع حتى بدت كلماتها تخرج متلعثمة وصدرها يعلو وينخفض من الانفعال والمشاعر الحائرة تتصارع داخلها وهي تقول:

- حقيقي اشتقت لي، هل حقيقي أنا فرحة عمرك ؟!

أضاءت عين والدها بدموع القلب الذي أنهكه الفراق حتى عجز عن الإجابة ..

فتحت سارة ذراعيها، ضمت والدها إليها حتى سال الدمع على وجنتيها أخذت تربت على كتفه بحنان وتضمه إليها أكثر كَطفلة صغيرة ترفع ذراعيها إليه ليحملها بين يديه، وما أن ضمها إليه حتى أراحت رأسها على كتفه، وربتت بكفيها على ظهره؛ لتطمئن روحه أن هناك من يحتاج إليه، طفلته الصغيرة ضمدت جراح قلبه بلمساتها الدافئة، شعر بالاحتواء بين ذراعيها، ومر شريط الذكريات أمامها يداعب قلبها، ويتحدث بالهمس إلى عقلها المستسلم .

كم اشتقت لكَ في صمت يدمي القلوب؟

كم زهدت قربك مع طول غيابك؟

كم وددت لو أعلم لماذا تركتنا لسنوات؟

كنت أرى صديقاتي يستندون على أباءهم في ذلك الوقت الذي لم أجد لي ملاذًا، أب غائب، وأم تحمل القسوة تتفنن في نسج الأكاذيب، وتصبها صبًا في عقولنا الصغيرة ، لكن لماذا ؟

تأوهت دون وعي وهي تهمس من بين دموعها الحائرة، أيهما أصدق؟

انتهي اللقاء وعادت سارة محمله بمشاعر ممزقة، ذكري مشوهة، دموع حبيسة، قلب حائر، وصلت إلى المنزل فتحت باب الشقة، ثم دلفت بهدوء وجدت المنزل كعادته دائمًا يخيم عليه صمت القبور، مشت بخطوات مترددة نحو حجرة أمها، قبل أن تدق الباب سمعت صوتها من الداخل يبكي وينتحب بصوت مختنق كعادتها وهي تبحث عن المفقود بين جدران حجرتها، تسترجع الذكريات وتبكي؛ فيغمرها الضعف تبدو كذلك دائما عند الاحتجاب في حجرتها المظلمة، ثم يأتي الصباح فتعود للقسوة والحدة، وتختبئ خلفهم..

تراجعت سارة إلى الخلف، وقررت أن تتركها لتستعيد نفسها.

دلفت سارة إلى حجرتها الباردة، جلست على فراشها، وبدأت تكتب في دفترها الصغير، انتظرت من أبي أن يقص لي ما يسئ إلى أمي كما تفعل، لكنه لم يفعل.

قال لي بكلمات مختصره أمك ضحية مجتمع مادي يرى الحياة في كل ما هو زائف، يرى القيمة في كل ما يحصي ويباع ويشتري..

قال لي إنها كانت تهيم عشقا بشخص آخر، ورفض والدها وعائلتها هذا الحب، ولم يجمع بينهم القدر، تزوجها أبي دون علمه بذلك الأمر، مرت سنوات قليلة ومر زواجهم بالكثير.

مرت الأيام دون جديد حتى علمت أمي بوفاة حبيبها السابق بعد صراع طويل مع مرض السرطان، استبدت بها الظنون وأرقتها الذكريات، حملت نفسها الذنب، وساء الوضع بينهم أكثر، ثم افترقا بشكل مؤقت بعد أن حاول معها مراراً دون جدوى، سافر أبي وأعد منزلًا، وعمل مدرسًا هناك، لكنها رفضت أن نذهب إليه، أخفت عنه مكان اقامتنا بعد أن تركت بيتنا القديم، تركته دون أن تفرط فيه بشكل نهائي.

بحث هو كثيرا دون جدوى، لكن احتفاظها بالبيت؛ جعل أمله في اللقاء يصبح يقينًا وان طال الصبر، حكي لي كيف كان يرسل الرسائل إلى بيتنا القديم فيسلمها حارس العقار إلى أمي وهي تخفيها عنا...

لا أدري لماذا تتمسك أمي بنا وهي تقسو؟

لماذا تحرمنا منه وهو حنون متسامح؟

لماذا تقسو علينا وعلى نفسها هكذا؟

فلا هي منحت ولا هي تركت ..

كانت دوماً الحصن المنيع الذي يقف أمام نهر الحياة المتدفق..

لو شاهدت قطة وصغارها، كيف تحنو عليهم وتحميهم، ما صدقت أن القطة ذاتها تأكلهم؛ أذا شعرت بالخطر عليهم، هكذا فعلت أمي.

أقف الآن في منتصف الطريق، لا أعلم إلى من منهما انتمي، كلاً منهم أستسلم ولم يهتم لضعفنا، تركوا الأيادي الصغيرة وتخلوا، ثم ذهبوا ليعيشوا كما ارادوا.

لكني رأيت في نظراته شيئاً غريبًا جذبني إليه، تأملته في دهشة ربما كان ذلك الشيء هو ذلك المس الذي يضع بصماته على جدران القلوب، وقد أصابها، فلتبقى تلك الذكرى بين دفتري وقلبي.

الآن جاء دوري في الاختيار...

خطت سارة فوق الدفتر طريقها بالقلم وكتبت

" كن لنفسك كل شيء "

أنت بالحب أولى...

أنا وأشيائي الصغيرة نتهامس، نشد أزر بعضنا البعض، نؤمن أن الحياة فانية، والأشخاص راحلة؛ لذا أقف علي مفترق الطرق أستفتِ قلبي.. فيهمس لي:

لن يبقي معكِ سوي "نفسك" وبعض من "قلبك" كوني مقاتلة.

أحياء .. ولكن

سحب عبد الرحمن صندوقًا خشبيًا من رف صغير أعلى سريره، يحوي الكثير من الصور لسنوات عمره القليلة، فقد بدأ الدخول في مرحلة جديدة .. فقد أكمل عامه السابع عشر منذ أيام، فتح الصندوق وأخذ يقلب في الصور التي تحمل ملامح وجهه التي تتغير كلما تقدم به العمر.

كان يتأمل ملامحه ثم يقارن بينها وبين ملامح شقيقاته، كان عبد الرحمن يملك الكثير من ملامح زينب شقيقته الصغرى.

أما بشرى ويسرا كانوا يصغرون عبد الرحمن بسنتين "توأم متطابق" أطال عبد الرحمن النظر إلى صورته التي التقطت قبل ثلاث سنوات وهو يتسلم شهادة تكريم لإتمام حفظ القرآن الكريم، تأمل عيناه الواسعتين، وأنفه الدقيق، فمه المرسوم، وشعره شديد السواد، بشرته الخمرية المشبعة بحمره دائمة، كان الدمع يغزو عيناه في ألم غامض.

كانت زينب أقرب شقيقاته إلى قلبه، حمل كلاهما ملامح الأم الجميلة، كما ورثوا لين الطبع منها.

نزع عبد الرحمن جسده المنهك من الفراش، ثم ذهب إلى غرفة شقيقاته البنات ... جلس بينهن مبتسمًا في حنان وهو يتجاذب معهن أطراف الحديث حول أمورهم اليومية.

قالت له بشرى في خبث طفولي مرح :

-عبد الرحمن صديقتي رويدا تبلغك سلامها، منذ ان أوصلتها إلى منزلها ليلة الخميس، وهي دائمًا ما تذكرك وترسل تحياتها إليك.

قال عبد الرحمن وهو يتشاغل عن نظرات بشري:

- لم أفعل سوى الواجب ،لا داعي للشكر .

ابتسمت بشري وهي تقول:

-لكنها معجبة بكَ.

رفع عبد الرحمن عينه إليها بعتاب وضيق، ثم قال:

-ما هذا الكلام؟ لا تتحدثي معي مره أخرى في مثل هذه المواضيع.

ثم نهض مسرعًا خارج الغرفة التي أحتد فيها النقاش بين يسرا وبشرى؛ لنفس السبب يسرا ترى عبد الرحمن ملتزم دينياً وأخلاقيًا، وهي جادة مثله تماما، أما بشري فهي تحب البساطة وبعض المرح الذي لن يضر.

ذهب عبد الرحمن إلى غرفة المعيشة وقبل أن يدخل سمع والده يقول لوالدته :

-كل أملي في هذه الحياة أن نصل إلى بر الأمان، و أرى عبد الرحمن ينهي دراسته، ويكون عوناً لي في رعاية شقيقاته، حتى أطمئن عليهم جميعا.

قالت الأم بحنان وطيبة تتلمس طيب الحياة بجانب عائلتها الصغيرة :

-أدامك الله فوق رؤوسنا جميعاً أنت الخير والبركة ،أبني ولد طيب وصالح، وسيصبح سندًا لشقيقاته؛ فهو يحبهم كثيرا.

-سنوات عمري تمضي وحلمي الوحيد أن يصبح طبيبًا يطيب الآلام، ما طابت لي الحياة إلا باطمئنان قلبي أنه معي بعد الله سبحانه و تعالى، اللهم أدم علينا نعمك يا الله.

كان عبد الرحمن مازال واقفاً علي باب الغرفة يستمع إلى كلام والده ودموعه تتساقط والألم يتزايد داخل روحه، فقد كان يريد أن يفضي بحمله بين يدي والديه، لكن أملهم في الحياة يموت؛ أذا تكلم وأفضى عما يعتمل داخل صدره، لن يستطيع اغتيال آمالهم في تلك الحياة، سوف يهرب إلى حجرته، ويضع هم قلبه بين الحنايا، لعل الله يجعل له مخرجاً، عاد إلى غرفته وهو يئد الدموع العالقة بين أجفانه المنتفخة بسبب البكاء الذي ينتهي بالنهار ليبدأ في ساعات الليل الطويلة ، كان يغفو بين الألم والرجاء أن ينتهي الكابوس إلا أن الأيام تمر دون أمل.

كثيراً ما بحث عن علاج لحالته، وذهب إلى الأطباء مع خاله الذي يكبره بعشرة أعوام، ورفيق دربه في حفظ القران، وقدوته في الحياة، الذي يتطلع عبد الرحمن أن يصبح طبيبًا مثله، وهو مستودع أسراره ومأمنه.

مر الوقت وهو حائر يبحث بين الصفحات الالكترونية، يقلب، ويقرأ، ويسأل، حائر ما بين المواقع الطبية تارة والدينية تارة ولا شيء جديد.

مثل كل الأمور الحياتية الخلاف سيد الموقف لا أحد يشعر بالمعاناة إلا تلك

القلوب الواجفة التي لا تعلم لها داء ولا دواء.

كل ما يحمله بين طيات قلبه المكلوم هو الأيمان أن الله لن يضيعه؛ وهو يستعصم ويتقي.

قام عبد الرحمن ونزع بعض ملابسه، ثم وقف أمام المرآة والدموع تتقافز من عينيه يتأمل جسده الذي يرهق عقله وقلبه هو يشعر أنه أنثي حبيسة في ذلك الجسد، الذي أصبح لعنة لا أمل في الخلاص منه، كعادته كلما واجه مخاوفه وآلامه أيقن أن الحل في القرب من الله؛ ليجلي بصيرته ويهديه إلى الحل في وقت أختلط فيه كل شيء أمامه.

أنتزع روحه الهائمة المعذبة بين شعور الأنثى وبين كونه رجل مع وجود بعض الخلل في جسده، ما بين زيادة أو نقصان في الهرمونات وبعض التشوهات الخلقية ما بين الداخل والخارج، أنه مريض بما يسمي "اضطراب الهوية الجندرية"

كما أخبره الأطباء.

حائر هو بين ما يخافه من عدم علمه بحكمة الله تعالى فيما أصابه، وبين قناعاته بأن الله لم يخلق داء إلا وقد خلق له الدواء، تائه لا يعلم إلى أين يذهب بألمه،

كان تقبل البلاء والصبر مع الدعاء الذي يزيح الهم ويجلي البصيرة ويقدر المخرج أقرب إلى نفسه المؤمنة بقضاء الله وقدره، مع البحث عن مخرج.

سمع أذان الفجر؛ فقام يغتسل ويتوضأ وهو يستغفر الله من ذنبه الذي لا يعلمه.

توضأ وأمتزج الماء بالدموع، وطغى طعم الدموع المالح على طعم ماء الوضوء؛ فصار طعمه لاذعًا ...

صلى الفجر، ثم جلس يناجي ربه، بقلب أدماه الألم.

طرقات خافتة على باب حجرته، ثم دخلت أمه لتجد مشهد انخلع له قلبها فزعًا ودهشة، فتوالت الشهقات تشق صدرها، ولم تتجرأ الكلمات أن تعبر شفتيها حتى لحق بها أخيها؛ عندما رأى وقفتها الشاردة وهي تضع يدها على فمها، كانت عيناه ملتاعة لسبب ما.

دفع الباب ليجد عبد الرحمن يرتدي "إسدال صلاة نسائي" ويضع حجابًا على رأسه، كان مسجي على جانبه الأيمن، جلس خالة بجانبه يردد أسمه بصوت أقرب إلى الهمس وهو يتفحصه، لكن رحمة الله قد سبقت، بكى وهو يردد

" يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي "
الحمد لله.

فكانت دعوة عبد الرحمن دائماً (اللهم أرزقنا حسن الخاتمة).

خشع قلبه بين يدي الله سبحانه و تعالى، وروحه النقية المعذبة صاعدة نحو أبواب السماء .

<u>ليلة غاب فيها القمر</u>

ليلة حالكة شديدة الظلام غاب فيها القمر بين غيمات المطر الكثيف، بدأ المطر يشتد أكثر فأكثر وسيارة رياضية حمراء بداخلها ثلاث أصدقاء على الطريق، أحدهم كان أحمد الجالس خلف المقود يتلمس الطريق يقود السيارة بهدوء، وتبدو الإضاءة سيئة؛ لإتساع الفضاء من حولهم، والمطر ينهمر دون توقف، بجانبه يجلس عمرو كان يشاغل أحمد بحكاياته ليحثه على اليقظة، أما في المقعد الخلفي كان كريم غارقًا في سبات عميق، كانوا عائدين من الإسكندرية إلى القاهرة بعد قضاء إجازة قصيرة؛ لكن سوء الأحوال جعل الطريق يمتد أمامهم ويبدو طويلاً.

داخل السيارة ضجت أصوات الضحك والمرح بين الأصدقاء، وبدء الطريق موحشًا على الرغم من جو المرح السائد بينهم، زاد أحمد من ضوء كشافات السيارة الأمامية، وهو يزيد من سرعة السيارة ليقطع الطريق سريعاً؛ فسوء الجو لا ينذر بالخير، أحمد ينظر من وقت لأخر نحو عمرو يشاركه الضحك تارة، والغناء تارة أخرى يتلمس اليقظة، وفجأة ظهر أمامهم على بعد أمتار قليلة جسد يتحرك في الظلام دون التعرف على هويته، ما بين الظلام الدامس وستار المطر المنهمر والرؤية تكاد تكون منعدمة دعس أحمد فرامل السيارة بقوة؛ مما جعلها تتوقف بشدة بصرير مزعج مما أدى إلى ارتطام عمرو بزجاج السيارة الأمامي بشدة حتى كاد الزجاج أن تهشم من شدة الارتطام، في حين أفاق كريم من نومه في اللحظة الذي ضغط فيها أحمد على فرامل السيارة، لكنه كان مازال تحت تأثير النوم؛ فآثر مراقبة الموقف من الداخل.

تطلع الجميع خارج السيارة بعد فتح النوافذ المغلقة لتشوش الرؤية عبر الزجاج بسبب المطر الكثيف، ليجدوا أمامهم فتاة رائعة الجمال ، ترتدي ملابس صيفيه ذات أكمام قصيرة، وشعرها البني ينسدل على كتفيها متناثرًا بفعل الأمطار مبللاً يلتصق بوجهها الأبيض، وعينيها البنيتين لهم أهداب طويلة تتعلق بهم حبات المطر، وقفت الفتاة ترتعد من البرد، تبدو كأنها عائدة من قلب البحر ذاته، ملابسها تقطر ماء كانت في أواخر العشرينات من عمرها ، تنظر إليهم برجاء صامت.

ترجل أحمد وعمرو من السيارة رفع أحمد لياقة معطفه ليخفي وجهه من حبات المطر، بينما دس عمرو يديه في جيبه بشكل تلقائي، تطلعوا للفتاة بدهشة وأحمد يقول بعصبية شديدة:

- ماذا تفعلين هنا في مثل هذا الوقت، وفي مثل هذا الطقس السيئ

قالت الفتاة متلعثمة:

- لقد كنت عائدة إلى بيتي وإطار سيارتي الأمامي أنفجر، فلم يكن أمامي إلا استكمال الطريق سيراً على الأقدام.

قال عمرو بهدوء، وهو يتلفت حوله:

- أذن، تفضلي معنا لا نستطيع تركك في هذا المكان؛ كما يبدو لي أن المسافة أطول بكثير من أن تقطعيها سيراً على الأقدام.

أومأت الفتاة برأسها بالإيجاب وتحركت نحو السيارة في حين خلع أحمد معطفه وتقدم خطوات صغيرة يلحق بها، وهو يمد يده إليها بالمعطف قائلاً بلهجة أمره تحمل مزيج من الدهشة والغضب في أن واحد:

- تدثري بالمعطف فملابسك مبلله وتبدو لي غير مناسبة، لا أعلم كيف لكِ أن ترتدي مثلها في ليلة شتوية شديدة البرد كهذه الليلة؟!

تناولت المعطف لتضعه على كتفيها، ثم ركبت السيارة في المقعد الخلفي بجانب كريم، تولي عمرو القيادة هذه المرة بينما جلس أحمد في المقعد الأمامي واخذ يسترق النظرات إلى الفتاة من آن لأخر في المرآة الجانبية وهو يتساءل بداخلة :

-كيف لفتاة أن تكون في مثل هذا الوقت، والطقس، في هذا الطريق المهجور؟

كيف لها أن ترتدي هذه الملابس في جو كهذا؟

هل يسألها ليروي فضوله أم يتركها؟ كانت على الرغم من جمالها الرائع إلا أن الحزن يسكن عينيها الواسعتين؛ مما جعل الدموع تضئ ما بين أهدابها الطويلة كحبات اللؤلؤ دون أن تستطيع الفرار من محبسيهما، حجب المطر عن تلك العدسات الثاقبة التي اتسعت عن أخرها تتلمس طريقها لفتح أبواب المعرفة حتى حسم أحمد أمره وهو يلتفت إليها ويقول بشيء من الغضب الذي لا يعلم هو نفسه سبباً له:

-ما أسمك ؟ وما هو عملك بالضبط الذي أستوجب أن تكوني في هذا المكان الآن ؟

تنحنحت الفتاة ليخرج صوتها ضعيفًا ممتزجًا بالأسى والخجل :

-أسمي جميلة محمد النوري، أعمل طبيبة وكنت في زيارة لمريضة، وتأخر الوقت، عندما أنهيت عملي، وبدأت رحلة عودتي إلى البيت في الطريق أنفجر إطار السيارة الأمامي، أما عن ملابسي فكنت على عجلة من أمري ونسيت المعطف صباحاً، بعد أن تلقيت مكالمة من المريضة تطلب المساعدة العاجلة.

هز أحمد رأسه وهو يرفع حاجبيه في دهشة ثم أدار وجه إلى الأمام وعاد يجلس في سكون، وهو يتمتم في ضجر وبصوت هامس:

- في مثل هذا الطقس تنسي معطفها، هذا شانها، فلتنقضي هذه الليلة يا إلهي .

خيم الصمت التام على السيارة، ومضي الوقت ببطء، حتى أشارت جميلة بالتوقف أمام فيلا صغيرة، وعليها أسم الدكتور محمد النوري مكتوب على لوحة صغيرة بجانب البوابة الأمامية، نزلت من السيارة تتدثر بمعطف أحمد، ثم تقدمت خطوات صغيرة ومالت على النافذة الأمامية التي يجلس خلفها تنقرها بأصابع يدها المرمرية بهدوء، فتح أحمد النافذة فقالت له بأدب جم :

- سوف أرسل لكَ المعطف مع أحد الخدم اذا أذنت لي.

أومأ أحمد برأسه بالإيجاب، تقدمت جميلة نحو الفيلا بخطوات سريعة كطيف متشح بالسواد لا يظهر منه سوى قامته الطويلة نسبياً، وقد أخفت رأسها ووجها بياقة المعطف.

غابت جميلة نصف ساعة كاملة في الداخل، أثناء ذلك كان الثلاثة قد اندمجوا في تفسير تلك الواقعة، وكل منهم يجد صعوبة في إيجاد بعض المبررات لها، إلا أن بعض المؤشرات تؤكد صدق قصتها.

مر الوقت ببطء وبدأ المطر يهدأ، والقلق يسيطر على الجميع، اقترح كريم أن يذهبوا إلى الفيلا يستعجلوا استعادة المعطف؛ ليكملوا الطريق وتنتهي الليلة فوافق أحمد وعمرو وترجلوا جميعاً من السيارة، تقدمهم أحمد عبروا البوابة الخارجية التي كانت مفتوحة منذ عبور جميلة لها، بعد أن فتحت البوابة بمفتاحها ، طرق أحمد الباب بهدوء، بعد برهة من الوقت فتح الباب رجل كبير قد قارب الثمانين من عمره، أبيض الشعر، يرتدي منظارًا طبيًا، يبدو عليه الوقار والهدوء، وعلى وجهه ابتسامة صغيرة مرحبة، قال :

-أهلاً وسهلاً، هل من خدمة أقدمها لكم؟ فربما أصاب سيارتكم عطل ما!

أنا معتاد على زوار الليل في مثل تلك الليالي الشتوية القاسية؛ لذلك أترك البوابات الخارجية مفتوحة.

أسرع كريم يقول كأنه ينفي عنهم جرم:-

-هي من فتح البوابات.

قال العجوز:

-من تقصد؟

تنحنح أحمد ببعض الحرج، وارتسمت ابتسامة على شفتيه بسبب حفاوة هذا الرجل المضياف، وهو يقول:

-أبداً يا فندم السيارة بخير، أريد أن أستأذن حضرتك أن تستعجل لي معطفي؛ لنكمل الطريق.

بدت الدهشة على ملامح الرجل، وهو يقول:

-أي معطف هذا؟ أستعجل من؟

-الآنسة التي دخلت قبل قليل.

-لا يوجد عندنا آنسات يا بني، لا يوجد سيدات هنا إلا زوجتي الجالسة هناك، وبعض المساعدين الذين يقومون على خدمتنا وأمور الحراسة.

تنحي الرجل جانبا ليفسح لأحمد الطريق يدعوه وأصدقائه للدخول، وهو يشير بيده نحو سيدة قعيدة ترتدي منظارًا طبيًا تجلس بجانب مدفأة وتمسك بيدها إبرة تريكو يتدلى الصوف منها وهي تحرك يدها بمهارة وسرعه، يبدو أنها تغزل شالاً من الصوف، أول شيء جذب الانتباه كان الشبة الكبير بينها وبين جميلة، هي أيضا بيضاء لها عينان واسعتان، وشعر قصير لونه بني ماعدا هاله رمادية في مقدمة رأسها، دخلوا وقد تملكتهم الدهشة وهم يتبادلون النظرات المتسائلة فيما بينهم، تقدم عمرو والقى التحية على السيدة التي أومأت برأسها مرحبة في صمت، فأسرع زوجها يقول:

-عذرًا زوجتي فقدت القدرة على الكلام منذ عشرون عام مضت ، لكنها تستطيع قراءة حركة الشفاه.

قال أحمد:

-لا بأس عليها، عافاها الله.

أضاف عمرو محاولاً شرح الموقف باختصار، بدأ في وصف جميلة في نفس اللحظة التي صاح فيها كريم وهو يشير إلى إحدى الصور المعلقة على الحائط ،وهو يقول:

-أنها هي، جميلة.

التفت الجميع إلى مكان الصورة ،وابتسم عمرو ابتسامة خافته؛ أخيراً وجدوا ما يرفع الحرج عنهم، ويبرهن على صدق أقوالهم، فقال:

-نعم هي ... جميلة.

جلس الرجل الذي ما كان غير دكتور محمد النوري على أقرب مقعد وبدا الألم عميق على وجهه الأبيض المجعد؛ بفعل سنوات عمره المنقضية، بينما شهقت السيدة القعيدة بصوت عالي، وسقطت الإبرة من يدها، ثم ساد الصمت للحظات حتى تمالك دكتور النوري نفسه، وقال بألم :

-هذه الفتاة ابنتي الوحيدة ، توفيت منذ ما يقارب العشرون عاماً، ماتت غارقة بين أمواج البحر في ليلة صيفية هادئة، كانت ذاهبة لمتابعة مريضة، لقد كانت طبيبة، وتأخر الوقت، ولم تعود أبداً في تلك الليلة، ثم وجدوها غارقة بين أمواج البحر وقد لفظها البحر على الشاطئ بعد يومين، وكان أحن علينا ممن قتلها دون شفقة، وقُيدت الجريمة ضد مجهول ومنذ ذلك الوقت وزوجتي فاقدة للنطق، وتركت أنا عملي كطبيب، ثم انعزلنا عن العالم هنا.

صاح أحمد وقد تملكه الفزع، وقال:

-ما هذا الهراء هي كانت معنا منذ ساعة على الأكثر، رأيناها جميعاً جلست بجانب كريم في السيارة، أليس كذلك يا كريم؟

أومأ كريم برأسه بالإيجاب، وقد تملكه الخوف هو الأخر، في حين أستمر أحمد يقول:

-تحدثت معي وأعطيتها معطفي، وتحدثت إلى عمرو أيضاً.

كان عمرو يستمع للحديث ويضع يديه أعلى رأسه وقد أتت كلمات الرجل بأثرها على عقله، فأخذ يربط الأحداث في سرعه، وتذكر ملابسها الصيفية والألم على وجهها، وتذكر البياض الشديد لبشرتها، وهروب الدماء من وجهها؛ الذي أرجعه إلى شدة البرد الذي تعرضت له؛ فلم يلقي له بالاً...

وقف دكتور محمد وخطى نحو الباب فجأة، وهو يدعوهم إلى مرافقته، ذهبوا إلى الجزء الخلفي للفيلا بعد أن داروا حولها نص دائرة ، وهناك وجدوا مدفن صغير أشار إليه دكتور محمد، وهو يقول :-

-هناك ترقد جميلة منذ عشرون عاماً.

اقتربوا ليجدوا قطعة رخام محفور عليها

هنا ترقد دكتورة / جميلة محمد النوري

وقد عاشت من 1973 : 1998

اقترب عمرو أكثر من المدفن، ومده يده يمسك ذلك الشيء الأسود الذي رآه على الضوء الخافت المنبعث من مصباح صغير أعلى سور الفيلا خلفهم تمامًا، أخذ يقلبه بين يديه، ثم تبعة أحمد ومد يده يسحبه من بين يدي عمرو.

بصوت بدا عاليًا شديد الانفعال قال:

- إنه معطفي.

مرت دقائق من الصمت، ثم أضاف أحمد بلهجة متوترة، وبصوت خافت:

- معطفي الذي نبحث عنه، لكنه جاف تماماً.

افاق أحمد من غفوته العميقة، ليجد نفسه في فراشه داخل غرفته بملابس نومه أعتدل إلى وضع الجلوس، ورفع يده اليمنى يتحسس رأسه محاولاً الإمساك بهذا الألم الذي ينخر في رأسه، وهو يستعيد ببطء أحداث ليلته السابقة، ثم همهم ببعض الكلمات في فزع وتعالى صوته كأنه يقنع عقله بما يردد.

-أنه كابوس .. كابوس .. أجل كابوس ..

قالها وهو ينهض وقد دب نشاط مفاجئ في جسده المرهق، أندفع يبحث عن ملابسه التي كان يرتديها أمس، أثناء بحثه أكتشف اختفاء معطفه، لكنه وجد القميص والبنطال في المكان المخصص للغسيل، وقد غمرهم الماء تماماً، مرر يده بين خصلات شعره القصيرة، وهو يردد

-كابوس .. أجل كابوس ..

ذهب يبحث عن حذائه وجده ملطخًا بالوحل والماء من أثر المطر، دب الرعب في قلبه، والفزع كسا ملامحه، تناول هاتفه الشخصي يتصل بعمرو، وعند سماعه لصوت صديقه أراد أن يسأله عن ليلة أمس، لكنه اكتشف مع محاولاته الفاشلة للحديث أنه فقد صوته بشكل مؤقت؛ تيقن حينها أنها أبدًا لم تكن ليلة عادية، وأن ما مروا به حقيقة، جلس على حافة فراشة يبكي مثل الأطفال.

لم يكن يدري سبب لشعوره بالحزن الذي علق بقلبه؟

بعض الأرواح المعذبة هائمة تبحث عن الانتقام ممن حكم عليهم بالعذاب، تطلب العدالة، تشتاق للعودة لتلك الحياة التي خذلتهم .. يعودون لبعض الوقت للفت الانتباه أو لبعض المتعة ربما للانتقام، ثم يعودون ليرقدوا بسلام؛ بعد أن وضعوا أسرارهم بين أيدي

البعض، لتكون اشارات للبحث بين خبايا المجهول، ليست مجرد صدفة جمعت بين أشخاص لم يلتقوا بالحياة لكنها أقدار مكتوبة، ثم تعود إلى عالمها الأخر...

فدوى

دقت الساعة الخامسة، وبدأت الشمس تنزوي نحو الغروب، تاركه ذلك الوهج الأحمر يغزو الأفق ببطء، توالت دقات قلبها في سرعة وهي تلتفت نحو الساعة المعلقة أمامها في بهو منزلها، بدت كأنها على موعد كاد أن ينقضي وقته؛

فأسرعت الخطي لتلحق به

كانت شاردة وهي تتجه نحو البحر

عندما رأته من بعيد أسرعت الخطي إليه، بدت شبه ابتسامة يغلفها الغموض الذي دائما ما يكتنف النهايات، اقتربت حتى أصبحت على بعد خطوات من أمواجه الثائرة، جلست على صخرة ليلى مراد، تنظر إلى البحر في سكون، وهي ترى الشمس تغرق بين أمواجه، برودة الجو تغمرها، لكن داخلها مشتعل بنار لا تهدأ، وقد فرد الليل شراعه استعدادًا للإبحار، كانت فدوي جميله لها بشره خمرية يتشرب وجهها بحمرة جميلة، لها عينان بلون البحر يتألق الدمع داخلهم دون أن ينهمر، تنتظر كل يوم ذلك الغائب الذي رحل دون وداع، ليته يعود يومًا.

هكذا كانت تردد داخلها، أنا أنتظر ذلك الهارب بأحلامي، تاركاً بحرًا من العطاء قد جف ورائه.

جلست تتذكر يومًا ليس ببعيد، كانت تجلس في نفس المكان، تمسك بيدها ديوان " وعادت سندريلا حافية القدمين " للكاتبة " نور عبد المجيد "، تقرأ بنهم، وسعادة، فتفيض عيونها بالدمع تارة، ويبتسم ثغرها المرسوم تارة أخري.

لا تحلق بي عالياً هكذا ..

فكلما اعتلينا

كان ارتطامنا أشد عنفاً وإيلاماً..

لا تلون الغد ولا ترسم زواياه..

فأنا وأنت نعلم جيداً

أن الغد يوم آخر..

دعني أصلي كثيراً

ليبقي حبك ولو ساعات أخري..

تسلل ياسر من خلفها في خفه، ووقع بعينيه داخل صفحات كتابها؛ شعرت فدوى بذلك الطيف الخفي؛ ففزعت وأنتفض جسدها الصغير بشدة، بعدما انتزعها من شرودها، قفزت من فوق الصخرة واقفة على قدميها وسقط كتابها من يدها، فاستدارت لتجده أمامها عاقدًا ذراعيه أمام صدره، يبتسم بزهو، وسيم فارع الطول، ساد الصمت لدقائق حتى قالت متلعثمة بالكلمات، وقد ضاق ما بين حاجبيها الجميلين من الغضب:

-ماذا تظن نفسك فاعلا؟! لماذا تقتحم عليّ خلوتي مع نفسي وتتطفل عليّ دائمًا؟!

-أنتِ السبب، لم تتركي لي طريقاً أخر، كلما اقتربت منك انزويتِ، وذهبتِ للقراءة.

فقالت وقد زاد الغضب من حده صوتها:

-وماذا تريد مني؟

-أريدك.

شهقت فدوى في ثورة وبراءة، فابنة الخامسة والعشرون وحيدة الأم والأب، مازالت تحمل بداخلها الأميرة الصغيرة، التي تتباهى بجمالها، وبراءتها، وفيض من الرومانسية الحالمة، تنتظر فارسها ليأتيها على حصانه الأبيض، يحملها خلفه دون كلمات، ثم يسرع بها الخطى نحو عالمهم.

ضحك ياسر ضحكة عفه وقفز من فوق الصخرة؛ ليقترب منها ناظرًا داخل عينيها؛ كاشفاً بتلك النظرات عما تملكه من رغبه قوية بامتلاك تلك الحورية الصغيرة، تراجعت أمام نظراته، وحارت في معناها، دقائق مرت كالساعات، ثم مدت يدها إلى ديوانها الملقي على الرمال البيضاء، وضمته إليها، وبدأت تعدو نحو بيتها في خطوات سريعة، وتركته واقفاً يتابعها بنظراته إلى أن اختفت عن نظره تمامًا.

مرت الأيام، وياسر يقتحم حياتها بالمواقف، وبالكلمات، يأسر طفولتها الحالمة.

ثم تقدم لخطبتها، وتقرب لعائلتها الصغيرة، أحبه الجميع.

كانت فدوى ابنه وحيدة لعائلة مسالمة، كل ما يسعون إليه سعادة أميرتهم الصغيرة، تم العرس في أبهى صوره له، وقضى العروسان يومين داخل مدينة الأحلام، بدا كل شيء جميلاً، ومثاليًا، تنظر فدوى في المرآة تجد أمامها أميرة من عالم ديزني، وسعادة أبدية تلوح في الأفق كما تقول الأسطورة، وياسر بلمساته السحرية، وبضع كلمات، يلون الأفق حولهم بألوان قوس قزح.

ثم بدأ ياسر يستعد للسفر إلى أمريكا مدينة أحلامه، على أن تلحق به فدوى.

سافر ياسر، وبدأ في مراسلتها منذ وصوله، كان يسكب كلمات العشق في أذنيها؛ فيتورد وجهها بحمرة الخجل ولون العشق، ويأخذها معه أرض الأحلام ، وهي تنتظر على أمل اللقاء فتسلم بين يديه، وتطلق العنان للخيال.

ثم تلتقط ديوانها المفضل، وتتلو الكلمات كأنها أنغامًا.

أنا والساحر

وأستلقي على عشب أحلامي الأخضر

وأضحك..

أنا عشقت ساحر.

وأسأل كل صباح

كيف تتسع عباءتك دوماً

لكل هذه الحيل؟

كيف تخرج كل هذه الألوان

من بين أصابعك؟

كيف ترمي إلى كفي بزهرة صغيرة

حين أحاول التقاطها ينفجر ينبوع ماء

ويرقص فوقه قوس قزح؟

سقط ديوانها من بين أصابعها دون أن تشعر، كانت تدور حول نفسها كفراشة تحلق حول النور، تتمايل على أطراف أصابعها حامله قلبها الصغير بين ضلوعها ينتفض عشقاً.

انقضت الأيام والشهور ... مر عامًا كاملاً على هذا الحال دون جديد، وفجأة انقطعت المراسلات بينهم والمكالمات وغاب عنها ياسر، بحثوا عنه طويلاً ظنًا منهم أنه قد أصابه مكروه، وفجأة وصلت رسالة تحمل كلمات قليلة منه.

" إن الحياة لا تعطي الكثير، لكنها تستمر دون توقف، مع دعواته لها بحياة أفضل مع من يستحق، مرفقة بوثيقة طلاق بتاريخ قديم، يرجع إلى أولى أيام سفرة إلى أمريكا منذ عام مضي ".

مادت بها الأرض فسقطت بين يدي والدها، الذي بكي بمرارة رجل عاجز، مرت السنوات، وما بقى لفدوى من روحها القديمة ينتظر يوم ترد فيه المظالم، ليأتي إليها يرجو الصفح، لكن العمر يمضي دون أن تدري كيف لها أن تتخلص من الألم والعجز؟ كيف لها أن تستمر في الحياة بذلك القلب المهشم؟

كان ياسر صياد ماهر يعشق الكنوز، يسعي لتملكها بكل وسيلة ممكنه، ليس للضمير نهياً عليه ولا أمر، وأن كلفه ذلك القتل دون عقاب؛ لن يكلف نفسه مشقة العقاب، فأحكم الخطة ونصب الفخ بأحكام ، تأكد من النصر، وبدأ القتل بالحب.

قلب فدوى هو ما يجعلها تأتي إلى ذلك المكان، تتذكر وهى تضع يدها على قلبها، تتواري خلف طفولتها العاجزة، أمام قلب أصابه مس العشق، لبقايا رجل لا يعرف من العشق إلا الملذات، ولا يعلم عن الرجولة إلا الكلمات.

ربما ينتهي العشق ويلتئم الجرح لكن خيبات الخذلان تأبي أن تستمر معها الحياة.

جاءت فدوي وهي تنوي الانتقام من قلبها الذي خذلها، وعقلها الذي عجز عن نصرتها، قررت في تلك الليلة أن تلقي آلام روحها الهشة العاجزة بين أمواج رفيق سنوات عمرها القليلة، وقفت تمشي بخطوات وئيدة نحو البحر الثائر، تسمع أمواجه تتهامس باسمها، تسير إليه مخيرة بكامل أرادتها، وقد جفت الدموع بين أهدابها الطويلة، مر الوقت بطئ وهي تصارع الأمواج ، لكن وصل عابد...

جارها وصديق طفولتها وأولى الناس بها، لحقها ثم سحبها إلي الشاطئ، وبدأ يعمل على أفاقتها أخذ يضغط بسرعة وبشكل متقطع على صدرها؛ ليعيد إليها الحياة ،وقطرات الماء تتساقط من خصلات شعره المتناثرة لتستقر على شواطئ ثغرها، هو يردد في داخله:

-لن أتركك له مرة أخري.

لقاء في عالم آخر

جلست داليا بجوار والدتها، دكتورة "أمال الجوهري"، طبيبة النساء والولادة بكلية الطب جامعة القاهرة، وهي تتابع أحد برامج التوك شو باهتمام ،كانت داليا تحاول لملمة أفكارها وترتبها؛ استعدادًا لمناقشة طويلة مع أمها تحاول أقناعها بما تريد ثم تساعدها في اقناع والدها دكتور "منتصر الراوي" عميد كلية الطب جامعة عين شمس في الوقت الحالي، وطبيب الأورام الشهير، فعادة ما يكون القرار مشتركًا بينهم، وأن استطاعت داليا النجاح مع أمها؛ فسوف يحسم الأمر لصالحها كما تظن، هذه المرة لأبد أن تقاتل داليا للوصول لحلمها؛ فالوقت يمر سريعًا وتنتهي الأحلام في المنتصف. كثيرًا من الناس يري أن علاقة الأم بابنتها هي إحدى أبسط العلاقات وأسهلها، إلا أن داليا كانت مثل الكثير من جيل الثمانينات، يشعر بالاغتراب وسط محيطه العائلي، داليا طبيبة تعمل بأحدي المستشفيات الحكومية على غير رغبة من والديها؛ بسبب مركزهما الاجتماعي المميز، إلا أنهم تركوا لها الاختيار؛ يقينا منهم أنها لن تستمر طويلاً، وسوف ترضخ في النهاية؛ لأنها لا تستطيع أن تبني نجاحًا حقيقيًا في مثل هذه المستشفيات؛ بسبب الروتين

وقلة الموارد والكثير من المعوقات...

شردت داليا ولاح لها قطار عمرها يطوي السنين يجعل منها ذكرى تسكن داخل قلبها الواجف.

منذ سبع سنوات كاملة وهي تحاول أن تقنع والديها بالموافقة على زواجها من "دكتور يحيى الرفاعي" طبيب أمراض الدم والمعيد بجامعة القاهرة دون جدوى؛ ويرجع سبب الرفض إلى انتمائه لأسرة بسيطة من صعيد مصر وتحديداً من محافظة المنيا، لكنها أسرة أصيلة، لهم سبع أبناء خمس رجال، وفتاتين، والجميع من خريجي كليات القمة كما يطلق عليها دون استثناء،

والجميع انتقلوا إلى القاهرة أو إلى الإسكندرية للعمل، وتزوج الجميع ماعدا الابن الأصغر لهذه الأسرة، الذي أتم عامه الحادي والثلاثين قبل أيام معدودة، وكان قد تقدم لخطبة داليا ثلاث مرات، ويتم رفض طلبه دون أبداء أي أسباب، لكن الأمر واضح كشروق الشمس بعد ليل طويل.

وأخيرا أنتهي وقت البرنامج، وافاقت داليا من شرودها الطويل على صوت موسيقي النهاية، فاعتدلت في جلستها لتواجه والدتها، وهي تنظر في عينيها ثم قالت بلهجة جمعت بين الرجاء والإصرار في أن واحد:

-لو سمحتِ يا أمي أريد الحديث معكِ بأمر هام.

تأملتها أمها بنظرة ثاقبة من أسفل نظارتها الطبية في صمت جمّد الدم في عروقها، على الرغم من سنوات عمرها التسعة وعشرون، وعلى الرغم من أنها معيدة في جامعة القاهرة، وطبيبة أطفال مميزة، تمتاز بالقبول والنجاح وحسن الخلق، إلا أنها مازالت طفلة مسالمة تخشي اللوم والعتاب، رقيقة كنسمة صيف باردة جاءت محملة بشذى الياسمين، هي دائما كالكتاب المفتوح؛ لذلك ظن والديها أنها لابد أن تكون تابعة لهم، اعتقادًا منهم بحمايتها.

لكنها ضاقت ولم يعد بوسعها أن تتقبل الوصاية، وسنوات عمرها تتفلت من بين يديها كحبات المطر التي أبت أن تبقى في حضن كفها الصغير بعد أن تلقفتها.

أعادت داليا جملتها بلهجة أكثر إصرارًا:

-أريد أن أتحدث معكِ بأمر هام يا أمي ، لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

قالت الأم بهدوء يكاد يصل لمرحلة البرود وحمل كلامها قليلاً من التهكم :

-تفضلي يا دكتورة، هاتِ ما لديكِ مع العلم أنني يمكنني التنبؤ بأمرك الهام ، فكما تظنين أنتِ أننا لا نملك غير هذا الأمر لنتحدث به، ثم نرفض ونغلق باب النقاش، ليعاد فتحه بعد أيام قليلة وهكذا.

هبت داليا واقفة من مكانها وهي تنتفض من الغضب، وقالت بتحدٍ غير معتاد:

-ألا يستحق مستقبلي أن يأخذ صفة الأهمية لديكم، ألا تستحق مشاعري بعض من وقتكم، لماذا يا أمي كل هذا الجفاء؟ لماذا هذا التعنت؟ أنا لا أريد أن أغضبكم، لكني لا أرى منكم إلا التعسف والقوة في النيل من أحلامي وقهر مشاعري، لماذا كل هذا التجبر؟

هل السبب حبي لكما أم لأن رضاكم أملي ؟! لماذا؟

لماذا يراق دمعي ويهون ألمي؟ بالله عليكم لماذا؟

عادت داليا للجلوس مرة أخري وهي مازالت تنتفض من الغضب، سيل الدموع ينهمر من عينيها الذابلة، انهارت قوتها حتى الكلمات ذهبت سدى؛ شعرت بالإهانة أمام هذا الصقيع المتشظي الذي أصاب قلبها الرقيق من حديث أمها الغير مبالي.

قالت دكتورة أمال بنفس الهدوء والإصرار وأن خفت اللامبالاة والتي نالت من قلب ابنتها:

-حاولي أن تفهمني يا حبيبتي نحن لا نريد إلا سعادتك، دكتور يحيى وضع أسرته الاجتماعي وظروفهم المادية غير مناسبة، اختاري شابًا آخر يكون مناسبًا لكِ؛ ولن يقف أحد أمام سعادتك، نحن أيضا لنا حق عليكِ؛ لأبد أن تختاري شخص جدير بكِ.

أطلقت داليا ضحكة مريرة وهي تقول بأسى شديد:

-أي شخص هذا يا أمي إذا كان معيد بكلية طب القاهرة لا يناسبكم، شهور قليلة ويحصل على الدكتوراه، هل يناسبكم أمير عربي من الخليج أم مهراجا من بلاد الهند؟! ما زلت لا أستوعب حديثك حقًا، هل أنتم مقتنعون بهذا الهراء؟!

كيف تسول لكم أنفسكم أن تقيّموا البشر كأنهم سلعة بالمال تارة وبالحسب والنسب تارة؟

أين العلم والشهادات المعلقة على حوائط منزلكم؟

أين دينكم الذي يقيم الإنسان بالتقوى والصلاح؟

أين الإنسانية؟ أين حقي في اختيار شريك حياتي؟

تملك الغضب من أمها وقالت بلهجة شديدة وهي ترفع إبهامها أمام وجها:

-المناقشة انتهت ولن اسمح لك بالحديث بهذا الشأن مرة أخرى، لن أسمح بالتجاوز في الحديث معي بهذا الشكل، انتبهي يا دكتورة.

همت أمها بالذهاب لغرفتها، لكن داليا وضعت يدها على كتفها الأيمن من الخلف لتوقفها، ثم استدارت لتواجها مرة أخرى وهي تقول برجاء مذل:

-بالله عليكِ يا أمي ساعديني، أين أجد الحب أن جف لديكم؟ أنا افتقده بينكم؟

أين أجد السند أذا لم يكن هنا ؟

أين أجد السعادة أذا تركت يحيى ... فهو السعادة والأمل؟

يحيى كل أملي في هذه الحياة.

قالت أمها بنفاذ صبر، وهي تزيحها من أمامها بقسوة :

-لن نقبل، فكري قليلاً من يكون جد أولادك عم رمضان الطباخ، من يكونوا أعمامهم وعماتهم بل من يكون أبيهم ...

صرخت داليا وهي تسقط على الأرض و تقول :

-يكون الدكتور "يحيى الرفاعي" دكتور أمراض الدم المعيد بكلية الطب جامعة القاهرة.

أجهشت ببكاء مرير لم يجد له طريق إلى قلب أمها الأعمي، مر باقي اليوم وهي على هذه الحالة كادت تغيب عن الوعي من فرط الألم، دائما ما يكون الخذلان موجع لدرجة الموت إذا جاء من الأقرب للقلب.

انعزلت داليا عن والديها، أصبح وقتها للعمل في المشفى أو الغرق بين الكتب والمراجع الخاصة بها، ذبلت وردة لم يحن موعد ذبولها؛ دون أن يرق لها قلب الساقي.

مرت الأيام والحزن يلون كل الأشياء بلونه الحالك دون أمل...

ذهبت داليا لمقابلة يحيى في المكان الذي اعتادا أن يجمعهم سويًا، دلفت لتجده يجلس بهدوئه المعتاد، شاب وسيم، طبيب ناجح، على خلق؛ يفتن القلوب بنقاء سريرته.

وقفت تتأمله كأنها تراه للمرة الأخيرة، وفرّت الدموع من محبسها تعلن التسليم ... لحظات طويلة مرت قبل أن ينتبه إليها.

عندما أنتبه إليها هب من مكانه يسرع الخطي إليها، وقف أمامها يترقب حزنها بصمت مهيب يعلن عن ألمه هو الأخر، وإن رسم ابتسامة هادئة انتزعها من براثن الحزن وهو يهمس لها..

-لماذا يتساقط اللؤلؤ هكذا، لن يخذلنا الله فصبرًا جميلاً.

جففت دموعها وتقدمت لتجلس في المقعد المقابل له، أرغمت نفسها على ابتسامة صغيرة رغم الحزن الذي تمكن من قلبها وبات يزحف بخبث إلى أن استكان داخل عقلها المتعب.

قالت وهي تحاول لملمة أفكارها، وقد حسمت أمرها ولم يبقي سوى الدخول في حيز التنفيذ، قال لسانها ما يخشاه قلبها ويأبي عقلها أن يستوعبه...

-يحيى .. لم يبق لنا طريق إلا وقد طرقنا بابه، لكن جميع الأبواب مغلقة أمامنا، أعلم أنك وعدت فأوفيت، ولتعلم أن الحياة والموت سواء؛ أذا أصبح الفراق واجب، لكنه بات أكثر الاختيارات منطقيه.

انهارت وأفلت رباط جأشها من بين يديها يعلن عن فشلها أمام مشاعرها.

تنحي يحيى عن صمته وقال بثبات :

-ما الداعي لكل هذا اليأس، ألم نتعاهد على القتال ؟

على الرغم من الحزن البادي على ملامحها الرقيقة إلا أنها ضحكت لكلماته، أشرق وجهها بضياء الأمل، نظرت له بحب جم وقالت :

-أخشى عليك من الوقت والجهد؛ أنت بحاجه لجهدك للحصول على الدكتوراه، ليس من أجل قتال ظالم وضعنا القدر أمامه لحل قضية محسومة لصالحنا، لكن أهلي ...

قاطع كلماتها وهو يحثها على الصمت بإشارة من يده، قال :

- أهلنا وواجب علينا استيعاب مخاوفهم.

-لن أستطيع أن أحيا من دونك.

أبتسم يحيى وقال :

- أنا أيضًا، ليس لي حياة من دونك.

-وما العمل أذًا.

ضحك يحيى وقال بمرح:

- لن أخذلك أبدًا؛ أفضل الموت دونك، مازال أمامنا الوقت والعمر؛ لن نفرط في حبنا بهذه السهولة.

في اليوم التالي ذهب يحيى مع أخيه الأكبر طبيب الأسنان دكتور "أمين الرفاعي" إلى منزل دكتور" منتصر الراوي" للمرة الرابعة؛ لإعادة طلبه ، لكن الحال لم يكن أفضل من المرات السابقة؛ قوبل الطلب بالرفض، خرج يحيى مشغول البال منكسر يشعر بالعجز واليأس، وبكت داليا في حجرتها بعد أن توعد والدها بزواجها من أول عريس يطرق الباب، أتهمها بتعمد أحراجه ومنعها من الذهاب إلى العمل، فرض عقوبات تقتضي بمنعها من الخروج بمفردها أو مقابلة يحيى.

انزوت أكثر وبدأت حالتها النفسية تسوء حتى سيطر عليها الاكتئاب الشديد؛ فما كان من والديها إلا العناد والتمسك بأفكارهم الباليه؛ حتى اعتلت صحتها، وأصبحت لا تفارق فراشها بسبب المرض.

وعلى الجانب الأخر فشل يحيى في الوصول إليها أو زيارتها حتى ليلة عيد ميلادها، أشتري يحيى لها علبة من الشيكولاته المفضلة لديها وباقة صغيرة من زهر الأقحوان الأبيض، ذهب إلى منزلها، ووقف أمام والدها يطلب لقائها.

قوبل طلبه من والدها بعناد وكبر دون أن يدعوه للجلوس قال:

-ما سبب الزيارة يا دكتور؟

قال يحيى بأدب جم:

-زيارة المريض واجب يا دكتور.

- أكيد طبعًا في الظروف والعلاقات العادية، لكن الموقف هنا يجعل الجميع في حرج، أليس كذلك؟

-أسمح لي أن اختلف معك، لم أكن أستطيع أن أتغافل عن مرض داليا، وأنا أعلم الناس بحاجتها لمثل هذه الزيارة؛ لذلك أتيت دون موعد وأرجو أن تنحي خلافاتنا جانبًا وأن تسمح لي برؤيتها والاطمئنان عليها.

تعالى صوت والدها وهو يقول:

-أخرج من بيتي لن تتزوج منها ما دمت حيًا، أنتَ السبب في مرضها، أنتَ من أفسد الحياة بيننا كعائلة.

أراد يحيى أن يدافع عن نفسه، لكن داليا ظهرت على باب غرفة الاستقبال تستند إلى الحائط، تمشي متحاملة على ألام جسدها المعتل، ووجهها الشاحب؛ فأسرع يحيى الخطى إليها يحاول أن يساعدها إلا أن والدها أوقفه، ودفعه بقوة؛ فتراجع إلى الخلف.

بكت داليا بشدة وهي تقول:

-أرجوك يا يحيى أذهب من هنا ولا تأتي مرة أخرى، أذهب إلى مستقبلك المضيء، إنس ما كان بيننا؛ لم يبقي لنا أي أمل.

-لن أذهب لن أتركك...

-أرجوك يا يحيى.

فتح والدها الباب، وضع الزهور وعلبة الشيكولاته بين يديه، وهو يقول:

-شرفتنا يا دكتور.

نظر يحيى طويلاً إلى داليا التي انهارت وسقطت على الأرض، بعد أن عجزت قدميها على حملها، ثم ذهب وهو يشعر بعجز الروح وقهر الرجال، ذهب شارد الفكر؛ مشغول بمرضها ويأسها، وعجزه عن تقديم الدعم والمساندة، ألقى ما يحمله، ومضى في طريقة بلا هدف، عبر الطريق دون انتباه؛ لتأتي سيارة مسرعة تصدمه بقوة، وتلقي بجسده إلى الأمام عشرة أمتار كاملة؛ سقط جسده مضرجًا بالدماء ومات قهرًا دون رحمه.

مرت أيام قليلة بعد الحادث وداليا تعاني من مرارة الظلم، وحزنها على حبيبها .. سندها الوحيد في هذا العالم الذي انزوت شمسه إلى الأفق البعيد؛ وتركها وحيدة في أرض الاستعباد حتى اشتد بها اليأس، وتمكن منها المرض، الذي شخصه الطبيب المعالج على أنه انفجار دماغي منعها من الحركة تمامًا، ثم غابت عن الوعي لعدة أيام، والجميع يترقب غياب شمسها هي الأخرى بعد الانطفاء دون ذنب.

الندم كان ما بقى لوالديها وأن كان لن يفيد بشيء؛ فقد فات الأوان.

استيقظت من الغيبوبة ذات ليلة بصراخ يشق جدران سجنها؛ فأدمت قلوب حراسها، ثم أسلمت روحها إلى بارئها وهي في شبه غيبوبة.

لم يبق إلا الذكرى وقصاصات من ورق كانت تكتبها.

لو كان بإمكاني أن أزرع قصري بزهر الأقحوان الأبيض، وبعض من الزنبق، ولتكن لي بحيرة صغيرة على شاطئيها جنة يسكنها الملائكة.

<u>**إهداء**</u>

قال لي أبي :

-أجلسي يا "..." أريد أن أحدثك في أمر هام

جلست أمامه أستمع إليه في هدوء ظاهري، ودقات قلبي تتسارع بداخلي كعصفور صغير داخل قفص، يشعر بقرب حدوث شيء جلل، يرجو الفرار من قفصه، لكن أين المفر؟

مر الوقت ببطء وأبي ينظر تجاهي في صمت حائر، عيونه ملتاعة يود لو يشاركني ما يحمل من الألم لكن تمنعه الشفقة، آثر الصمت، وأنا أشعر بقرب ذلك الأمر الذي من شأنه أن يغير عالمنا، أنه يقترب...

طال الانتظار وقررت الهروب كعادتي ، فأنا أشعر بذلك الجاثوم الذي يثقل صدر أبي وأرى بعينيه الألم، لكن القلب يأبي أن يصدق ما آل إليه العقل، الذي أعتاد على ربط الأشياء وتحليها ومعرفة ما يدور.

وقفت من مجلسي الذي طال إلى تسعون دقيقة وقد عزمت الفرار، فالوقت يمر وأنا أتساءل، وأبي يصمت ويتشاغل، فأشار عليّ أبي بالجلوس مرة أخرى.

فجلست.

قال أبي بهدوء وجدية كعادته، وبصوته الرخيم:

-سوف أغيب لعدة أيام، لعمل بعض الفحوصات وأنتِ ابنتي الكبرى والمسئولية تقع على عاتقك ...

فتحدث عن البيت وأمي وأخواتي ،وما يجب فعله وما يجب تركه، وأنا أتظاهر بالبرود، و قلبي يغلق عيناه عن الحقائق، وعقلي كلما أراد الاعتراض ازجره؛ فينزوي.

أنا أشعر بذلك الصخب الذي أقتحم هدوء حياتنا منذ عدة أسابيع، أراه في نظراته وقسمات وجهه، وصمته الطويل، وذبوله ونحوله، عزلته في حجرته كلما عاد من عيادته فأبي طبيب، وكنت أظن أن الطبيب لا يمرض، فرغم الأربعة وعشرون عامًا التي كنت أملكها حينها إلا أن الطفلة التي بداخلي كانت تأبى أن تكبر.

وبعد عدة أيام، وبعد إلحاح علمت أن أبي مريض "بسرطان الرئة " خمنت ذلك وأنا أنظر إلى الأشعة التي بيدي، ظنوني تأخذني إلى حيث أكره، لكن المنطق والتصرفات والشك بداخلي يتأجج كالنار.

الجميع يفر بما يحمل من المواجهة، وقد منعنا من زيارته في المشفى ... ذهب ليواجه وحده ما يخشاه الجميع، وبعد أيام قليلة كما منع سمح لنا بالذهاب إليه، دخلت لأجده ممددًا على فراش المرض، وجسده متصلًا بالمحاليل والعديد من الأجهزة، وجرحه الغائر مضمد.

قلت له:

-كيف لك أنا تختار أن تكون وحدك هنا على هذه الحالة؟

كانت دموعي لا تكفي، وحزني لا يكفي، أشعر كأن روحي تنسحب من جسدي، وكأني في سكرات الموت، أيقنت حينها أن سكرات الموت لن تأتي بجديد، فقد اختبرت تلك الآلام.

خرجت الكلمات مبعثره كطفلة مازالت تتعثر بالكلمات، فأنطق حرف ويسقط الأخر ما بين الدموع والألم.

- لماذا يا أبي اخترت أن تكون وحيداً إلى هذا الحد؟

-أنا بخير.. الحمد لله

-لماذا تخفي عني وأنا أولى بألمك؟

-لا تقلقي، كنت أظن أنها النهاية، لم أكن أظن أني سوف أخرج من غرفة العمليات، خوفي عليكم ما جعلني أختار الوحدة، لا تحزني فقد مضى.

الدموع تأبى أن تتوقف وأنفاسِ تصارع الاختناق.

تمضي الأيام ما بين الألم والدموع لكنها مغلفة بالصبر والأمل في الله الذي لا ينفد أبدًا، وما بين الرضا والترقب نتشاغل عن الحقائق بالخيال، نصلي وندعو، فيتجدد الأمل بالدعوات ...
هكذا بعض الألم يحمل لك الأمان والعزاء كأنه يهمس بأذنك أن السعادة آتية بعد العناء فصبراً...
ويمر عاما كاملاً وأبي مريض يتقلب بين العجز التام وصحوة الحياة لكنه مصلي.. صائم لرمضان كاملاً.. حتى يوم عرفات كان صائمًا كما أعتاد رغم الألم.
جلست أنظر إليه بزهو ورضا وأنا أردد من عاش على شيء مات عليه فمنذ الصغر وأنا أراه مصليًا.. صائمًا حاجًا .. بارّاً .. عادل وأن كان مظلومًا .. طبيب طيب يشفي الناس بابتسامة، وبعض من الأمل والصبر، يشخص الألم و يصف الدواء بكل ما أتاه الله من علم، ورفق لمن يستطيع ومن لا يستطيع، حتى جاء اليقين وجاء الموت؛ فتصدع الجبل وخشع لإرادة الرحمن ...

إلى جنة الخلد أيها الطبيب الطيب وداعًا يا أبى.

كل كلماتي لا تكفي...

طبيب طيب الذكر، يحمل كتاب الله بين أضلاعه، ترك لنا إرثًا عظيمًا من خشية الله؛ دون ذلك هباء...